صلة الجاهلية بالعالم القديم*

سادتي الأماثل : السلام عليكم ، أما بعد فقد أبى المجمع العلمي الكريم إلا أن يحفزني الى القول ، ويخرج بي من سدفة العزلة ، فنزلت على حكمه المطاع ، وأرهفت من غرب اليراع ، وبعد فمن ذا الذي يدعوه العلم فيجمجم ، ويهيب به الأدب فيحجم .

أيها السادة : لقد وقع اختياري على نبذة لي أنشأتها عن « العصر الجاهلي وموقف أهله من العالم القديم في السياسة والتجارة » ولقد توفرت على استقراء ذلك من أمهات الكتب الغربية ، وفي اللمع المبثوثة بين تضاعيف المؤلفات العربية .

تعريف العصر الجاهلي

لاجرم أن للعرب صلتهم السياسية والاقتصادية بالأمم الغابرة ، وذلك ما أود أن أجمله في هذه المحاضرة ، فالعرب أمة عريقة في المجد والسؤدد ترجع في نسبتها الى الدوحة السامية ، وكذلك اللسان العربي سواء أكان قحطانيا أم عدنيا .

ويراد بالعصر الجاهلي ما كان عليه العرب قبل الاسلام من دأب وسيرة ، وقال ابن خالويه انه اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، وما تعدو تلك الحقبة في التاريخ المتداول مئة وخمسين عاماً قبل الهجرة عند جمهرة الادباء ، وان ذلك ليكون صحيحاً لا غبار عليه اذا عنينا بأوائك

(١) محاضرة ألقاها الشيخ فؤاد الخطيب في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١٨ و ٢٢ ايار سنة ١٩٤٢ .

العرب « أهل الحجاز ونجد » فقد كانوا الى مدى غير بعيد عن الشعوب بمعزل ، لما في باديتهم من جدب ، وما في طباعهم من عنجهية ، ولم يرزقوا حظاً من الشهرة وترامي الذكر الا بعد أن تحولت الى أرضهم الطرق التجارية ، فحملتهم على الاتصال بالأمم الاخرى ، وأغرتهم بعقد الاسواق في عكاظ ومجنة وذي المجاز ، فوق ماقيض لهم من طول صحبتهم للانباط الذين كانوا قد انتشروا بينهم متفرقين على أثر هزيمتهم في سلع .

قدم العرب

ومن الخطأ المحض أن بعض الناس اذ ذكروا العرب في جاهليتهم ذهب بهم الظن الى الامة قاطبة ، والى الأمصار العربية بأسرها ، فخلطوا بينها وبين القبائل الضاربة في أودية « الحجاز ونجد » على أن سائر العرب في أصقاعهم الاخرى الخصبة وقبل تلك الفترة الجاهلية بقرون متطاولة ، كانوا لدات الفراعنة ، والبابليين ، والآشوريين ، والرومان ، وحسبي أن أرجع بكم الى ذكر « بني عاد » فانهم اقتحموا مملكة الكلدان القديمة وحكموها مايقرب من قرنين (سنة ١٥٤٦ قبل الميلاد) وكذلك « المملكة الآشورية » فقد خضعت للعرب البائدة فولي الأمر فيها تسعة ملوك منهم استتب لهم فيها الحكم ٢٤٥ عاماً كما يقول المؤرخ الكلداني بروسيوس ، ولما أفضى الأمر الى سرجون الآشوري قاتل بني ثمود وقضى بجلائهم الى مدينة غزة في فلسطين ، وكانت مواطن ثمود كما يقول بطليموس مدينة « اومن » في جنوبي العقبة الى المويلح ، وكانت هذه البقاع من قبلهم لبني لحيان كما نص على ذلك الجغرافي بلينوس ، ثم ان الاسكندر الاكبر المكدوني يوم غزا مدينة غزة الفى فيها حكومة عربية من « بني معين » وكانت هذه القبيلة العربية العجيبة قد غادرت وطنها الاول في جوف اليمن وانتشرت في الالف الثاني قبل الميلاد في جميع أنحاء الحجاز وهضاب سيناء ؛ ويعتقد الاستاذ « جلازر » ان الهكسوس الذين هبطوا مصر فاتحين ؛ انما كانوا من بني "معين" ؛ وأما آثر

بني معين في الشعوب القديمة فنومي، اليه نقوش مكتوبة ظهرت في مدينة « أور » في العراق ، ويقول العلامة هومل ان الخط العربي المسند هو الأصل الذي انشعب منه الخط الكنعاني ، ومن جملة أدلته على صحة ذلك ان هنالك نماذج من الكتابة المعينية وصلت الينا أقدم من أختها الكنعانية .

خط سورية من العروبة

ان الرومان عندما افتتحوا سورية وجدوا بين أهلها العرب ، وان لهم فيها دولتين شامختين — أما الاولى فدولة الانباط في سلع المعروفة عندنا بالبتراء أخذاً من اسمها العربي ، والى عاملها على دمشق أشار بولس الرسول في الاصحاح الحادي عشر من رسالته الثانية الى أهل كورنثوس فقال :

« في دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكني فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يديه » .

أما الدولة الثانية فحكومة آل السميذع في تدمر ؛ ومن أشهر ملوكها اذينة الثاني زوج الزباء الطائرة الصيت ، وقد وقف الاستاذ ليتمن خلال التنقيب في النقوش الصفوية على اسم اذينة هذا مما يشعر بنباهة قدره ، وذيوع ذكره .

ثم انه لا يخفى عليكم أن أحد رجال العرب قد تبوأ العرش الروماني فكان قيصراً للرومان ويعرف باسم فيلبوس العربي (٢٤٤—٢٤٩ م) وذلك أثناء احتفاء الرومان بذكرى الف سنة مرت على تأسيس رومة .

ولعل من أدعى الامور الى الدهشة في هذا الوطن السوري الكريم ان سيادة العرب فيه كانت متصلة متتالية ؛ فلم ينتكث لها حبل ؛ ولا انطمس لها عهد ؛ فكلما انهدمت لهم دولة فيه ، نجمت أخرى مكانها ؛ فانه عندما انهارت المملكة النبطية ؛ نشأت بعدها التدمرية ؛ فلما تداعت أركانها ؛ قام بأمر العرب بنو غسان ، فلما استشرى الضعف فيهم ، اذن الله بظهور الاسلام ، فجمع كلمة العرب بعد الشتات والانقسام . ونهض بهم من ذات

الصدع ، الى ذات الرجع ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » .

الموقف السياسي

وقد حان لي بعد تلك اللمحة الحثيثة أن اشرف بكم أيها السادة على الحالة السياسية في الحقبة الاخيرة الجاهلية وموقف العرب منها .

إن مايعرف اليوم بالشرق الادنى ، كان قبل ظهور الاسلام العامل السياسي في الحرب الطاحنة بين فارس والروم ، لنشوب أكثر المعارك فيه ، ولأن مملكة الروم كانت في أمس الحاجة الى متاجر الهند ، وسائر آسيا وبلاد العرب نفسها ولذلك كان من مرامي فارس أن تجد مستقراً لها في بلاد العرب ، لخطورة ذلك الموقع من الناحية الجغرافية ، ولان في طاقة فارس أن تنفذ منه الى غرضها فتمنع خيرات الشرق عن الروم .

وأما مملكة الروم فكانت تذود عن مصالحها بمحالفة الاحباش ، لما بين الروم وبينهم من أواصر الدين ، فكانت تغريهم باليمن وتقيم منهم في تلك الأصقاع السحيقة سداً دون مطامع فارس ، ماستطاعت الى ذلك سبيلا .

فكان النفوذ السياسي في الشرق والجنوب من بلاد العرب لفارس ، وفي الغرب للروم ، وكانت مكة أميل الى هؤلاء منها الى خصمهم ، لصلتها التجارية بهم عن طريق سورية ، ولأن أكثر المكيين كانوا من القبائل الشمالية أي من بني عدنان ، أما يثرب فكانت لمكة بالمرصاد ، تنافسها التجارة وتتقم عليها ثروتها الطائلة ، وكان أهلها من القبائل الجنوبية أي من بني قحطان .

لقد نزل العرب على تخوم فارس والروم في العراق وسورية منذ أحقاب خلت فاكرهوا الدولتين فيما بعد على محالفتهم ، وأصبح للعرب عمال وامراء في المملكتين ، وكان كل قبيل منهم ينصر حليفه ، على أن العرب كانوا الفينة بعد الفينة يتناسون مايبرم بين العاهلين من هدنة كما فعل القائد العربي

الغساني المعروف باسم خالد في الغارة على عاصمة المنذر في العراق (٥٤٠م) فانه لم يعبأ البتة بما كان بين الفرس والروم من مهادنة فشكاه كسرى الى جستنيان ، ولما لم يتلق منه جواباً ، أغار كسرى على أماسيا وحلب ومدن أخرى حتى كاد يكتسح سورية لولم يهرع الروم الى طلب الصلح والنزول لكسرى عما استولى عليه من أمصار .

أما المملكة النبطية فكانت في الزمن الاخير أشبه بما نسميه اليوم (الدولة الحاجزة) ولكن الرومان غلب عليهم الجشع والطمع فلم يكترثوا لذلك فتيلا وقضوا عليها في عام ١٠٦ م ، وكان آخر ملوكها مالك الثالث بعد أن تعاقب عليها ماشاء الله من أزمنة بلغت ستة قرون أو شيعها أدركت فيها الذروة من الحضارة والعمران ورواج الاسواق ، وقد اتخذت مدينة بصرى العربية من تلك الكارثة الفادحة بداية تؤرخ بها الحوادث جرياً على عادة العرب في مثل هذه الامور الجسام كعام الفيل وعام الخنان ، ونحو ذلك ، أما الرومان فقد رزحوا بعد زوال الانباط تحت مشاكل مرهقة فكانوا في عجز فاضح عن سد الثلمة ، ورأوا من الصحراء حلبة نزاع دائم بينهم وبين القبائل البدوية بله المملكة الفارسية ، أما العرب فحمل لواءهم بعد الانباط آل السميذع في تدمر ، وتحولت الى تدمر الطرق التجارية حتى بلغت قمة المجد في القرن الثالث الميلاد ، وقبل أن ينتصر عليها الرومان كانت صحراء سورية تنغش مكتظة بالقبائل البدوية النازحة من جوف الجزيرة وأطراف العراق وأصبحت المدن السورية عرضة للغارة عليها في كل أوان ، فعقد الروم حلفاً مع بني غسان ونفحوهم بالهبات المالية واتخذوا منهم رداً لهم في النوازل والخطوب ، ثم تضاءل ما بين الامتين من سبب وذريعة ، فالعرب في صفاء نفوسهم ومقتهم للغدر ، قد طالما زلت بهم القدم ، وأسلمتهم الفطنة وران عليهم من الروم اللدد والختل ، فجشمهم ذلك من عنت البلاء ضروباً ومن اذى المحن ألوانا ، أما الروم فكان نصيبهم الويل وفت العضد ، وان تاريخ العترة الغسانية لمفعم بتلك الصور السافرة ، مترع بما يعززها من

مشاهد متواترة ، وحسبي في الدلالة عليها ماسنح وطفٌ من سيرة ملوك ثلاثة هم الحارث الرابع ، وابنه المنذر ، وحفيد النعمان .

الحارث الرابع

لقد كان الحارث الرابع أشهر ملوك العرب المتأخرين من بني غسان ، وأعظمهم شأناً وقد خلع عليه الامبراطور جستنيان لقب بطريق وفيلارك (٥٢٩ م) وذلك على أثر ما احرز من نصر على المنذر الحيري ، وجزاء لما أسدى من يد للروم في اخماد فتنة السامريين ، أما فيلارك العرب في فلسطين فكان يعرف بأبي كرب وقد شد أزرهم في تلك الثائرة فكافأه القيصر بعشرين ألف أسير باعهم أرقاء للفرس والاحباش .

ولقد قاتل الحارث تحت قيادة بليساريوس ولكنه في الاوبة ركب غير الطريق التي سلكها جيش الروم فظنوا به الظنون ، وانه دلس عليهم الرأي ، وان له بالفرس صلة مستمرة ، وكذلك كان الروم يصدرون في معاملتهم للعرب عن ريبة تساورهم ، وحذر يملى عليهم ، فاخرجوا العرب من سجيتهم مكرهين ، وسلخوهم عن فطرتهم مرغمين .

لقد كان الحارث خصماً عنيداً للمنذر الحيري وهو المعروف بابن ماء السماء وجد النعمان أبي قابوس آخر ملك لخمي في الحيرة ، وكان مثار النزاع في الاكثر بين الملكين العربيين تلك البادية الواقعة جنوبي تدمر ، فقد ادعاها كل منهما لنفسه ، وانه الحقيق وحده بجباية الاتاوة منها ، وقد تجدد القتال بين الحارث والمنذر في سنة ٥٤٤ م فوقع ابن الحارث أسيراً بيد المنذر فقدمه قرباناً لآلهته العزى (افروديت) وفي خلال سنوات عشر من تلك الحرب الضروس نشبت المعركة الحاسمة بين الملكين فسقط فيها المنذر الحيرى قتيلاً وصرع أحد أنجال الحارث الغساني ويقول العلامة نولدكي أنها هي وقعة الحيارين ويوم حليمة وانها وقعة معركة واحدة لا اثنتان ، وان حليمة ليست امرأة بل اسم مكان . وقد رحل الحارث في أواخر حكم

جستنيان (٥٦٣) م الى القسطنطينية وفاوض القيصر فيمن يخلفه على سورية من أولاده ، وكان لهيبته سلطان كبير على ابن اخي القيصر جوستين ، وكان وليا للعهد ، فما آل اليه الملك وأصابه الخرف كان رجال البلاط يروعونه باسم الحارث كلما نشز عليهم وأعياهم أمره ، وقد رجع الحارث من العاصمة الى سورية ومعه أسقف من القائلين ببدعة الطبيعة الواحدة ، رعاية لشعور قومه الديني ، فقد كانت تلك العقيدة بينهم فاشية ، ولفظ أسقف معرب (ابسكيبوس) باليونانية ، ومعناه رقيب أو ناظر والمعروف عن الحارث أنه قد توفي في غضون ٥٧٠ م بعد أن تولى الأمر أربعين عاما ، وقد ورد اسمه في الوثائق الكنسية لسنتي ٥٦٨ ، ٥٦٩ م .

كان الحارث كسائر العرب ، يهزه الأدب ، وله بصر بمذاهب الكلام وقد اتخذ المرقش الاكبر كاتباً له ، ومما أوصاه في ذلك قوله « اذا نزع بك الكلام الى ابتداء معنى غير ما أنت فيه ، فصل بينه وبين ما تبتغيه من الالفاظ ، فانك ان مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها وملتها الاسماع ، واستثقلتها الرواة » .

ومن كلام المرقش يصف البادية والذئب :

ودويّة غبراء قد طال عهدها ... تهالك فيها الورد والمرء ناعس
وتسمع زقاء من البوم حولنا ... كما ضربت بعد الهدوء النواقس
ولما أضأنا النار حول شوائنا ... عرانا عليها أطلس اللون بائس
نبذت اليه حزّةً من شوائنا ... حياء ، ومافحشي على من أجالس
فآض بها جذلان ينفض رأسه ... كما آب بالنهب الكميّ المخالس

ومن أخبار الحارث أنه مر بافاريق من تغلب ، وكانت بنو تغلب قد لحقت بالشام بعد ثورتها على ملك العراق ؛ فلم يستقبلوا الحارث ، وركب عمرو بن كلثوم الشاعر التغلبي فلقيه فقال له الملك : مامنع قومك أن يتلقوني ؟ قال : لم يعلموا بمرورك ؛ قال : لئن رجعت لأغزونهم غزوة تتركهم أيقاظاً

لقدومي ؛ فقال عمرو : ماستيقظ قوم قط الا نبل رأيهم ، وعزت جماعتهم ، فلا توقظن نائمهم .

جوستين الثاني والمنذر

ولما أفضى الأمر الى جوستين الثاني عمل على اغتيال المنذر نجل الحارث ، وكان قد حلف أباه وقاتل الفرس وعرب العراق تحت لواء الروم ، ولكن المؤامرة حبطت ونار المنذر على الروم سنوات ثلاثاً أغار الفرس في خلالها ومعهم أنصارهم من عرب الحيرة على سورية ، فأوفد طيباريوس ، وكان وصياً على العرش ، مفوضاً من القسطنطينية اسمه يوستيانوس لعقد الصلح مع المنذر فاجتمع به عند ضريح القديس سرجيوس في الرصافة ، وكان ذلك القديس موضع احترام السوريين قاطبة ، وتم الصلح في صيف ٥٧٨م وقد توفي جستين الثاني في هذا العام وقام بالأمر بعده طيباريوس وكان أكثر تودداً للعرب ، فسافر المنذر الى القسطنطينية ومعه ولداه وليس فيها التاج (٥٨٠م) وكان القياصرة قبل ذلك لاينعمون على العرب الا (بالاكليل) ثم انقلب المنذر الى سورية وهاجم عرب الحيرة الا انه لم يتجاوزهم الى ارض فارس فارتاب الروم بأمره ورموه بالتواطؤ مع الفرس وكلفوا القائد ماغنوس في سورية أن يقبض عليه ، فدعاه الى احتفال في كنيسة حوارين وهناك اعتقله وأرسله مخفوراً الى العاصمة .

ثورة بني غسان

وقطعت الروم الاعانة المالية عن العرب ، فاستعرت لظى الثورة تحت زعامة النعمان النجل الاكبر للمنذر يعززه اخوته الثلاثة فاشاعوا الرعب في سورية جمعاء حتى انخلعت منهم قلوب الحامية في بصرى فتخلت لهم عن الذخائر الحربية وغيرها من أموال ابيهم المودعة في بصرى ، فعبأ طيباريوس جنوداً أخرى وضعها تحت قيادة ماغنوس لقمع الثورة ، وكان مع الجيش أخ للمنذر أعده الروم تضليلاً للعشائر الغسانية ولكن المنية أدركته في

الطريق فسقط في يد القائد الرومي إلا انه احتال على النعمان فدعاه الى المفاوضة السلمية فاجاب الدعوة ولكن ماغنوس غدر به فقبض عليه وأرسله الى القسطنطينية فبلغها في عهد القيصر موريقوس وكان يعامل فيها كأسير حر فانتشرت الفوضى بعد ذلك بين العرب السوريين ، وانقسموا حول شيوخهم شيعاً عزين ، حتى إذا زحف الفرس على الروم واثخنوا فيهم (٦١٣ – ٦١٤م) لاذ العرب باذيال الحياد ، بل انضم بعضهم الى الفرس ، ولحق منهم عدد قليل ببلاد الروم ، الا أن هرقل أعاد تأسيس المملكة الغسانية (سنة ٦٢٩م) ونصب عليها جبلة ابن الايهم ولكن الطلائع العربية كانت في خلال ذلك قد اخذت تحت راية لاسلام تقرع بظبات سيوفها أبواب مملكته من الجنوب .

العرب والفرس

أما فارس فشمرت لطرد العرب من العراق بعد أن بثوا المستعمرات العربية على حدود الفرثيين وتفاقم أمرها حتى شملت الارض التي عرفت فيما بعد بالسواد ، فحاصر أزدشير أول ملوك بني ساسان المستعمرة العربية المعروفة باسم (الحضر) ثم ان ابنه سابور انتصر على العرب (٢٤٠ م) ولكنه عي باخراجهم من البلاد فعقد اتفاقاً معهم ينص على أن يتناول العرب اعطيات مالية من الملك الأعظم وان يخضعوا له وان يدافعوا عن الحدود قال الشاعر :

أقفر الحضر من نضيرة فالمر باع منها فجانب الثرثار

والثرثار واد عظيم بين سنجار وتكريت كانت فيه منازل بكر بن وائل واختص باكثره بنو تغلب منهم وبر بالحضر ثم يصب في دجلة قال عدي بن زيد :

وأخو الحضر اذ بناه واذ دجـــلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور

نظام الاستعمار الفارسي

لقد كانت المملكة الفارسية تتألف من ولايات شتى يتولى شؤونها رئيس يكون مسؤولاً لدى الملك الأعظم وقد تنتخب الولاية رجلاً ينصبه الملك وقد يولي غيره ، وقديماً تمّ تكوين الجالية اليهودية تحت زعامة رئيسهم في الأسر جرياً على هذه القاعدة ، وعندما عظم أمر المسيحيين افردوا بولاية مستقلة تحت رئاسة سلوقية ، فاهل فارس وان كان في الظاهر مستبدّاً إلا أنه كان يحكم المقاطعات المترامية الأطراف وفقاً لرغبة أهلها بخلاف ما كانت عليه دولة الروم من تزمت في الادارة وضيق عطن ، ولذلك استمتع العرب تحت حكم فارس بنوع من (الحكم الذاتي) واسع النطاق ، فكان لهم استقلالهم تحت سيادة ملوكهم ، وكانت التزاماتهم الملك الأعظم تجرى طبقاً لميثاق يعقد . فكان الملك الأعظم يختار على العرب ملكاً من لحم أرباب القصور والحضارة ، أما بنو تنوخ فكانوا من سكان الخيام . ولقد بلغ من علو شأن العرب عند الفرس ان ملك فارس يزدجرد الاول (٤٢٠م) بعث ابنه الاكبر بهرام الى الحيرة لينشأ فيها على البطولة والفروسية ، ولكي ينعم بالهواء الطلق ولذة الصيد ، وقد سمت الحيرة الى أوج العظمة في عهد المنذر الثالث ، وعندما عقدت مملكة الروم صلحاً مع كسرى أنو شروان (٥٣٢ م) دفعت غرامة لملك فارس ومثلها لملك العرب المنذر .

الموقف الداخلي في بلاد العرب

لقد كانت مملكة حمير في مطلع القرن السادس بعد الميلاد مشرفة على الزوال ، وكانت حكومة نجران في اليمن قد دب اليهـــا هي الاخرى الضعف وكانت تتألف من أمير يلقب بالعاقب ، ووكيل يعرف بالسيد ، ومن أسقف ينظر في أمور الدين ، وكان ملوك القسطنطينية قد شرفوا العاقب ومولوه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه ، ولذلك كله خلا المجال (لملك الحيرة العربي)

وأصبح (سيد العرب) في القسم الجنوبي من الجزيرة وخضعت له معظم القبائل في أواسطها ، وكان سلطان الفرس مرتبطاً بذلك التوسع والنفوذ فاصبحت السيادة لفارس على الجنوب الشرقي من الجزيرة ، وعلى الجنوب الغربي منها ، فلا غرابة والحالة هذه اذا رأينا الملك عمرو بن هند يشير الى البحرين ، وهي عنه البعيدة النائية بانها تحت حكمه ، وداخلة في نطاق أعماله ، ويأمر المتلمس وطرفة الشاعرين الشهيرين بالسفر اليها ، لقبض الجائزة من عامله عليها ، وقد حملها اليه كتاباً منه ، وانكم أيها السادة لتعلمون أن المتلمس أنكر تلك الصحيفة فدفعها الى غلام من أهل الحيرة يقرؤها له ، لانه كان أمياً ، فاذا فيها (أما بعد فاذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً) فقذف المتلمس بالصحيفة في اليم وهرب الى بصرى وأخذ يهجو الملك ابن هند ، وكان قد بلغه أن الملك كان يقول : (حرام عليه حب العراق أن يطعم منه حبة ولئن وجدته لاقتلنه) وكان مما قاله المتلمس :

يا آل بكر ألا لله امكم ... طال الثواء وثوب المجز ملبوس
أغنيت شأني ، فأغنوا اليوم تيسكم ... واستحمقوا في مراس الحرب او كيسوا

ثم قال :

آليت حب العراق الدهر احرمه ... والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ... ولا دمشق اذا ديس الكداديس

وقال عن الصحيفة :

قذفت بها في اليم من جنب كافر ... كذلك السقي كل رأي مضلل
رضيت بها لما رأيت مدادها ... يجول به التيار في كل جدول

أما طرفة فانتهى الى البحرين وأمضى فيه العامل أمر الملك ، وقد رثته أخته الخرنق فقالت :

عددنا له خمساً وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيداً ضخما
فجعنا به لما انتظرنا إيابه ... على خير حال لا وليداً ولا فحما

ولقد كان عمرو بن هند هذا على مافيه من قسوة وعتو ، وهو الملقب بمضرط الحجارة ، يروقه الشعر ويطرب لانشاده ولما أنشده الحارث بن حلزة قصيدته وكان بينها سبعة ستور أعجب الملك بمنطقه وكانت هند أم الملك تسمع ، فقالت لابنها (تالله مارأيت كاليوم رجلاً يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور) فقال الملك (ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث) وما زالت هند يزيد اعجابها به ، والملك يقول ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث حتى أزيلت الستور السبعة ، وأقعده الملك قريباً منه ثم أطعمه من جفنته وأمر أن لاينضح أثره بالماء لأن الحارث كان به وضح أي برص ، وأطلق الملك السبعين بكرياً الاسرى ودفعهم الى الحارث ، وفضل قصيدته على قصيدة عمرو بن كلثوم فعاد التغلبيون الى أحيائهم ومعهم شاعرهم وهم يحملون في جوانحهم الملك كل ضغن ، ولبثوا كذلك ماشاء الله حتى جمعهم الملك مرة أخرى فثاروا عليه وانتهبوا رواقه ، وساقوا نجائبه ، وعلاه عمرو بن كلثوم بالسيف فأودى به .

الممثل الفارسي

أما الممثل الفارسي فكان بمنزلة المندوب السياسي في السياسة الحاضرة ، ومقامه في صنعاء ومنها يشرف على سائر اليمن وعمان والبحرين ، ويمتد نفوذه الى الصميم من نجد عن طريق اليمن وذلك أن كندة من القبائل القحطانية كانت قد التفت حولها قبائل بني بكر من اليمامة في أواسط القرن الميلادي الخامس لاتساع شقة الخلاف بين البكريين ، فاجمع عقلاؤهم على أن يولوا منهم ملكاً يختاره لهم سيد اليمن نفسه فانتقى لهم رجلاً من كندة اسمه حجر وهو والد امرىء القيس الشاعر الكبير فذهب الى نجد وجمع البكريين تحت لوائه .

حكاية عجيبة

ومن أعجب ما حدثتنا به السير أن أحد ولاة فارس في صنعاء وهو المسمى باذان أوفد بعض الجند الى الرسول الاعظم ﷺ في المدينة المنورة ، ولم يوفد اليه جيشاً لجباً بل رجلين اثنين من رجاله لأن الحجاز كانت (من مناطق نفوذه) ولذلك لم تنكر قريش على باذان مافعل ولا وقع لديها أمره موقع الاستغراب بل فرحت برؤية جنديه وظنت بالله الظنون فانه لما بعث الرسول ﷺ كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن (بلغني أن في أرضك رجلا تنبأ فابعث به الي) فبعث باذان قهرمانه وهو بانويه وكان كاتباً حاسباً وبعث معه برجل من الفرس يقال له خرخسره فكتب معها الى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معها الى كسرى وقال لبانويه (ويلك انظر ما الرجل وكله واتني بخبره) فلما بلغا الطائف وكان فيه حينئذ جمع من أشراف قريش مثل أبي سفيان وصفوان بن أمية وغيرهما فسألا عن النبي ﷺ فقالوا انه بيثرب فلما سمع أبو سفيان وصفوان بن أمية مضمون كتاب باذان فرحا وقالا (مثل كسرى قام بعداوته) وقدم بانويه وخرخسره المدينة على رسول الله ﷺ فلما قدما عليه أنزلهما وأمرهما بالمقام أياماً ثم أرسل لهما ذات غداة ولما دخلا عليه قال لهما (اجلسا) فبركا وجلسا على ركبهما وكلمه بانويه وقال (ان شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي فان فعلت كتب فيك الى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به وان أبيت فهو من قد علمت وهو مهلك قومك ومخرب بلادك) وأعطياه كتاب باذان ولما اطلع رسول الله ﷺ على كتاب باذان وسمع حكايتهما تبسم ودعاهما الى الاسلام ثم قال لهما (ارجعا حتى تأتياني غداً) فلما أتيا الى النبي ﷺ من الغد قال (ان ربي قد قتل الليلة ربكما بعد ما مضى من الليل سبع ساعات ، سلط عليه ابنه شيرويه حتى بقر بطنه .) وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء العاشرة من جمادى الاولى من السنة السابعة من الهجرة ثم قال (اذهبا وخبرا صاحبكما

— يعني باذان — بهذا الخبر) فقالا (هل تدري ماتقول ؟ انا قد نقمنا منك ماهو أيسر من هذا أفنكتب بها عنك ونخبر الملك) قال النبي (نعم أخبراه ذلك عني وقولا له ان ديني سيبلغ مابلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر وقولا له انك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء) ثم ان رسول الله ﷺ أعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر فقال (ماهذا بكلام ملك واني لأرى الرجل نبياً كما يقول ولننظرن ماقد قال فلئن كان ماقاله حقاً سيأتي الخبر اليّ يوم كذا ولاكلام انه نبي مرسل ولا يسبقني عليه أحد من الملوك في الايمان به ، وان لم يكن فسنرى فيه رأينا) فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه (أما بعد فاني قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم فتفرق الناس فاذا جاءك كتابي فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب اليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه) فلما انتهى كتاب شيرويه الى باذان قال (ان هذا الرجل لرسول الله حقاً) فاسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن وبعث باذان باسلامه واسلام من كان معه الى رسول الله ﷺ .

امرؤ القيس ورحلته الى قيصر

لقد كان العرب في ذلك الزمن الغابر كلما ضاقوا ذرعاً بالمسيطر عليهم من غير بني جنسهم فزعوا الى خصمه ولذلك سافر امرؤ القيس الى القسطنطينية بعد مقتل أبيه مستصرخاً القيصر « جوستنيان » على بني أسد ، وعلى المنذر ملك العراق ، فوعده القيصر خيراً ثم عرض عليه أن ينصبه أميراً على فلسطين فأبى امرؤ القيس تلك الامارة وكرّ راجعاً الى نجد ومات في انقرة .

ان في سفر امرىء القيس الى العاصمة الرومية لدليلاً على معرفة العرب باستغلال العداوة القائمة بين الروم والفرس ، وبرهاناً على علمهم باسباب

النزاع بين الدولتين ، فقد طمع امرؤ القيس في نصرة الروم له لما وقر في نفسه من أنهم يرغبون في أن يصيبوا من أعدائهم الفرس مقتلاً من مقاتلهم الاقتصادية ، وان امرأ القيس لم ينس أن يشيد بما عنّ له ضروب الطرف التجارية في قصيدته الرائية فذكر السنا ، والمسك الموضوع في حقة يمانية ، والبان والعود والبخور المدخن وذلك في قوله :

وريح سنا في حقة حميرية تخص بها من المسك اذفرا
وبانا ، والوّيا من الهند ذاكياً ورنداً وسي والكباء المقترا

ولقد كان لبني أسد النصيب الأوفر ، في اخفاق امريء القيس عند قيصر ، فقد دسوا اليه وفداً منهم أتى القسطنطينية وعلى رأسه الطماح بن قيس فأفسد رأي القيصر في امريء القيس ، وحمله على التبرم به والاعراض عنه قال امرؤ القيس :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائـــه ما تلبسا
الا ان بعد العدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا

وقد رزيء امرؤ القيس ببعض أصحابه في الطريق الى قيصر فمات منهم الحارث ابن حبيب السلمي فرثاه بقوله :

ثوى عند الودية جوف بصرى أبو الأيتام والكل العجاف
فمن يحمي المضاف اذا دعاه ويحمل خطة الانس الضعاف

والودية النخلة الصغيرة ، وقد بكى رفيقه بن عمرو قتيلة شاعر بني بكر المشهور وهو المعني بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقـان بقيصرا
فقلت له لاتبكِ عينك انمـا نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

منازل بني أسد والحارث الأعرج

ولقد كانت منازل بني أسد تقع الى الجنوب من تيماء أي الى الشرق من الطريق التجارية الكبرى وكانت قبائل بني عذرة ، وجذام ، وبلي ،

منتشرة على طول تلك الطريق التي أصبحت اليوم طريق الحجاج من معان الى المدينة وأما سلاسل الجبال اجأ ، وسلمى ، وعوارض ، فكانت تشرف من الغرب والجنوب على بني أسد الذين تؤلف منازلهم التخم الشمالي لعنزة والنمر النازلين على الطريق المؤدية من ناحية الجنوب الى فلسطين وسورية . قال حسان بن حنظلة الطائي :

غضبت علي ان اتصلت بطيء وأنا امرؤ من طيء الأجبال

أي أجأ وسلمى وعوارض . وأما بنو كلب وهم قبيلة يمانية كذلك فتنزل في الشمال وفي الشمال الشرقي من مواطن تلك القبائل أعني في المنخفضات التي تعرف اليوم باسم الجوف ووادي السرحان ؛ وكانت كثبان الرمال المترامية التي تسمى اليوم صحراء « النفود » هي الحاجز بين تلك القبائل اليمانية وبين بني أسد ، وكانت ديار بني أسد هدفاً لهجوم الغسانيين عليهم ، وأشهر من غزاهم الملك المعروف في القسطنطينية باسم (الحارث الاعرج) وقد مزق شملهم بجيوش جهزها عليهم خاصة لاعتدائهم بالغارة بعد الغارة على الحدود (٤٩٧ — ٥٠١ م) ولجأت بقية السيوف منهم الى أوزاع غيرهم من اخوانهم الآخرين .

قال شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص يذكر الحارث الأعرج :

نحن قدنا من أهاضيب الملا الـــخيل في الأرسان أمثال السعالي
فانتجعنا الحارث الأعرج في جحفل كالليل خطار العوالي

ثم يصف ديار بني أسد فيقول :

ولنـا دار ورثنا عزهـا (م) الاقدم القدموس عن عم وخال
مالنا فيها حصون غيرمـا (م) المقربات الجرد تردي بالرجال

وقال عن بني غسان :

بجحفل كبهيم الليـل منتجع ارض العدو لهام وافر العدد
وكل أجرد قد مالت رحالته نهد المراكل فم ناتىء الكتد
حتى تعاطين غساناً فحربهم يوم المرار ولم يلووا على أحد

عوت بنو أسد غسان أمرهم وقل ماوفقت غسان للرشد

وقال فيهم :

وجع غسان لقيناهم بجحفل قسطله ذائل

وقال يسخر من امرىء القيس وذهابه الى قيصر :

ياذا المخوفنا بقتل شيخه حجر تمني صاحب الاحلام
أزعمت أنك سوف تأتي قيصراً فلتهلكن اذاً وأنت شآم

وقال يعيره :

وأنت امرؤ ألهاك دف وقينة فتصبح مخموراً وتمسي كذلكا
ظللت تغني ان أصبت وليدة كأن معداً أصبحت في حبالكا

أما امرؤ القيس فأودع دروعه عند السموأل بن عادياء فجعلها في قصره الأبلق بالقرب من تيماء ولما ذاعت الانباء بوفاة امرىء القيس ظهر الحارث الغساني أمام الابلق بصفة أنه حامي الحدود الرومانية وطلب الدروع من السموأل وهدده ان لم يفعل بقتل ابنه على مرأى منه ومسمع ، وكان قد قبض عليه خارج الحصن أثناء عودته من الصيد فأبى السموأل تسليم الدروع وقتل الحارث ابنه ونكص عن الحصن يجر أذيال الخيبة أما حجة الحارث فكانت تقوم على ان امرأ القيس من (التابعة الرومانية) بطلب مساعدة القيصر ، وأما الحارث فقد أصبح بصفة كونه ممثل الامبراطورية على حق في أن يرث امرأ القيس .

النظام العسكري في الحيرة

أما النظام العسكري فليس لدينا نبأ عنه مسهب الا ما كان منه في بلاط النعمان بن المنذر ، فقد كانت للنعمان كتائب خمس وهي الرهائن — والصنائع — والوضائع — والاشاهب — ودوسر .

أما الرهائن فكانوا خمسماية رجل رهائن لقبائل العرب ، يقيمون على

باب الملك سنة ثم يستبدلون بخمسماية آخرين وينصرف أولئك الى أحيائهم ، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في أموره .

أما الصنائع فبنو قيس وبنو تيم اللات ، وكانوا خواص الملك لايبرحون بابه أي أنهم كانوا له « الحرس الخاص » .

أما الوضائع فكانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملك العرب وكانوا كذلك يقيمون سنة ثم يخلفهم ألف رجل وينصرف أولئك الى ديارهم اي انهم كانوا « جيش الاحتلال » .

أما الاشاهب فاخوة ملوك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من أعوانهم وسموا الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه ، قال الاعشى :

وبنو المنذر الأشاهب في الحير ة يمشون غدوة كالسيوف

وأما دوسر فكانت أخشن كتائب الملك وأشدها بطشاً ، ومن كل قبائل العرب ومعظمهم من ربيعة ، وكانت دوسر تعد أربعة آلاف رجل ، وسميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر ، وهو الطعن بالثقل لثقل وطأتها .

وكان الملك في رأس كل سنة من أيام الربيع يأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن وقد صير لهم أكلاً عنده وهم (ذوو الآكال) فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم وينصرفون الى أحيائهم .

التراجمة العرب في الامبراطورية

أما التراجمة العرب الذين تبوأوا المناصب الرسمية في الدولة الرومانية فلم يكن لهم شأن يؤبه له اما الذين كانوا منهم في بلاط فارس فاشهرهم عدي ابن زيد ، ولقيط بن زرارة وكان لهم فيه مقام أثير لاتصالهم المباشر بالملك الاعظم ومعرفة لغته وقيامهم بالترجمة بينه وبين العرب ، ولذلك كان الناس يرغبون اليهم ويرهبونهم ، وكان عدي اذا أراد المقام في الحيرة في منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر أو الشهرين وأكثر وأقل ، واذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدي ، وقد أرسله

كسرى سفيراً إلى ملك الروم بهدية من طرف ما عنده فلما أتاه عدي أكرمه وحمله الى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه وقد وقع عدي في دمشق وقال فيها الشعر فكان مما قال :

رب دار بأسفل الجزع من دو ... مة أشهى إلي من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نالوا ... ولا يرهبون ريب المنون
قد سقيت الشمول في دار بشر ... قهوة مزة بماء سخين

وكان لتلاعب المترجمين أثر وأي أثر في تصريف الامور ومن ذلك مافعل زيد بن عدي باللفظ المترجم أخذاً بثأر أبيه فقد طلب كسرى من النعمان نساء لنفسه وأوفد اليه زيد بن عدي ومعه رسول فارسي وقد زعم زيد للنعمان عند الاجتماع به في الحيرة أن كسرى أراد بمصاهرته تكريمه فشق الأمر على النعمان لضن العرب بنسائهم على غيرهم فقال لزيد ورسول كسرى يسمع ، أما في مها السواد وعين فارس مايبلغ به كسرى حاجته ! فترجمها زيد (كاون) اي البقر فكانت تلك الترجمة سبباً آخر في تفاقم العداء بين الملكين .

أما لقيط فقد غضب لقومه عندما رأى سابور مجمعاً على غزو أياد فكتب لهم قصيدة ينذرهم فيها غزو الملك اياهم وقد قطع الملك لسان لقيط عقاباً له وغزا اياداً ومما قال لقيط :

بالهف نفسي ان كانت أموركم ... شتى واحكم أمر الناس فاجتمعا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا قد نال الامر من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لامترفاً ان رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
ماانفك يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبيعاً طوراً ومتبعا

أما الحجاز فكان السلطان فيه للعمالقة ثم لجرهم ثم لخزاعة وانتقل بعد ذلك الى قريش على يد قصي بن كلاب .

الخلاصة

وفي الجملة أن العرب لم يكونوا في تلك الحقبة الاخيرة من العصر الجاهلي أمة بالمعنى القومي الصحيح بل كانوا عمالاً لغيرهم وخولاً لسوام الا أنهم كانوا قد سئموا تلك الحالة من شيوع الفوضى في الاعمال والمتاجر وفقدان الأمن وثقل وطأة الغريب فظهروا بمظهر المتبرم الناقم وذلك في ثورات عدة كثارة تميم وقيس متساندين على أطراف المملكة الفارسية ، حتى أن الأوس والخزرج كانوا قد تعاهدوا في يثرب على أن يكون عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم ، وعندما سار سيف بن ذي يزن على الحبشة وانتصر عليهم خرج عبد المطلب من الحجاز الى اليمن لتهنئته بالنصر ، وقدمت على سيف وفود العرب وأشرافها ووفد قريش خاصة وقيل في ذلك شعر مشهور ، ولقد كان الاستعماران الفارسي والروماني مما اجتواه العرب في النهاية وازورّوا عنه ، ولقد رويت لكم ما كان من أمر بني غسان وهرقل وأضيف عليه بهذا المقام أن الامور كانت قد سارت كذلك بين الاكاسرة والملوك اللخميين حتى فر النعمان من كسرى الى البادية يطوف على القبائل ليس أحد منهم يقبله وهو النعمان الثالث أبو قابوس ممدوح النابغة الشاعر المشهور ثم نزل بهاني بن مسعود الشيباني فاجاره وأشار عليه بعد أن جعل حرمه وسلاحه في ذمته أن يشخص الى كسرى فلا يكون بعد الملك سوقة يتلعب به صعاليك العرب وذؤبانها فقال له النعمان : هذا وأبيك الرأي الصحيح ويمم كسرى فلما بلغ بابه بعث اليه من قيده وزج به في السجن وقيل ألقاه تحت أرجل الفيلة فقتلته وكان هلاك النعمان سنة ٦٢٠ م فغضبت له العرب وكان مقتله السبب في وقعة « ذي قار » التي قال عنها الرسول ﷺ اليوم انتصف العرب من العجم وقد نزحت قبيلة بكر بن وائل بعد تلك الحرب الى البحرين فنزلت فيها غاضبة ساخطة واستأنفت الثورة على الفرس فانقطعت المواصلات بين فارس وبين الشرق والجنوب من بلاد العرب وأخذ الاستعمار

الفارسي بالأفول ولم يغن عن فارس مافعلته قبل ذلك من اختيار اياس بن قبيصة من قبيلة طي ملكاً على الحيرة فقد توفي أياس هذا سنة ٦١٤ م أي قبل مقتل النعمان وأصبحت الحيرة بعد اياس المشكلة المعقدة في السياسة الفارسية ، وأوحى الافن في الرأي الى رجالها أن ينزعوا استقلال الحيرة ويجعلوها ولاية فارسية ففعلوا ونصبوا عليهـــا حاكماً منهم فثارت مراجل الغضب في نفوس أهلها العرب وتربصوا بالفرس الدوائر وكان قد راعهم من قبل وملأهم رعباً ماشهدوا من وثبة الليث وماسمعوا من وقع لحييه على الفريسة ولكن شد منهم ورفـــه عنهم صوت النبوة الاقدس من الحجاز فاشرأبوا اليه جزاين فاذا هو منهم جد قريب واذا بالجحافل الفارسية في الحيرة تخنع بعد حين للفتح العربي الجديد .

وكذلك كان الشعور القومي بين العرب يزداد قوة على قوة ويدنو بعضه من بعض .

اللغة العربية والعرب

ذلك ماكان عليه العرب من حال سياسية لم تخل من شوائبها كتابتهم ، فقد كانت لغتهم العربية وهي نفس اللغة التي نتكلمها نحن اليوم ماعدا اليمن وما اليه من أطراف نائية الا أن العرب الاقدمين وان نطقوا بتلك اللغة الكريمة فقـد كانت كتابتهم باللغات الاخرى الغريبة ، فالمرقش الاكبر كتب شعره بالاحرف السريانية ، والغسانيون وان كانت لغتهم مضرية فقد دونوا أشعارهم وأخبارهم بالعبرية أو الرومية أو السريانية ، وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الآرامي وعلى ذلك جرى التدمريون والانباط فقد كانت كتابتهم بالآرامية ولغتهم المأنوسة هي العربية .

قال العلامة جويدي :

« ومن اللغات الآرامية الغربية لغة الكتابات النبطية وكانت الانبـاط أمة عربية الأصل ولغتهـا المأنوسة العربية فكانت اذ ذاك العربية للتكلم

والمحاورة بين الناس لا لتحرير الكتابات والمكاتيب اذ الاحرف الهجائية لم تستنبط بعد » .

وقال الاستاذ مرجليوث عن العربية ما يأتي :

انها « لغة عاشت أجيالاً طوالاً محتفظة بنحوها وصرفها ومعاني مفرداتها من غير أن يكون لها أدب مكتوب ، الأمر الذي يستدعي عناية فقهاء اللغات واهتمامهم . ثم قال :

« ان تلك اللغة لعجيبة في انتشارها ورشاقة تعبيرها ودقة تراكيبها وغنا مفرداتها واننا لنجد في نحوها الواسع تعليلاً وتفسيراً لكل مايواجهنا من التراكيب الشاذة في اللغات السامية الاخرى على الرغم من أن لبعض هذه اللغات آداباً قديمة يرجع تاريخها الى عصور قديمة جداً ، فمن ذلك مانجده في التوراة من التراكيب الشاذة المعقدة التي لاتستقيم ونحو اللغة العبرية والتي لانجد لها تعليلاً وتفسيراً الا بالالتجاء الى النحو العربي ، اذ هو النحو الوحيد الذي نجد فيه مايوضح لنـا كثيراً من معميات التوراة وما خفي من تراكيبها الشاذة » .

ولا أزيد على ذلك كله الا قولي انـه التعليل المعقول لضياع الكثرة من الادب العربي القديم الذي أشار اليه عنترة بقوله « هل غادر الشعراء من متردم » ولذلك لم يبلغنا منه إلا وشل من بحر ، وثمد من قطر .

أيها السادة

انه لخليق بي أن اسجل بعد هذا كله ان لغتنا العربية ليست بالحديثة الطارئة ولكنها صنو الدهر وترب الأجيال المتقادمة وانها هي نفس اللغة التي تكلمت بها القبائل العاربة أو البائدة ، قال الطبري في السفر الأول من تاريخه المطبوع في ليبسك في الصفحة ٢١٣ مايأتي :

« ولقد كان بنو عاد وثمود يتكلمون بهذا اللسان المضري ويقال لهم العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه » .

وبذلك قال صاحب نهاية الأرب في أنساب العرب ولم يعرض أحد

فيما اعلم لنقض ذلك الرأي أو القول بخلافه من عرب ثقاة أومستشرقين محققين.

العربية وأسماؤها

ان لغتنا هذه العربية تعرف كذلك بالمضرية ، والقرشية ، والعدنانية والفصحى ، وسماها القرآن الكريم (اللسان العربي المبين) وحسبها شرفاً أن القصائد الصادعة ، والحكم الرائعة ، والخطب البارعة ، والمؤلفات الجامعة ، والرسائل المحبرة ، لم تكن الا من وشيها الانيق ، ونسجها البديع ، وانها لافصح ما اختلج به لسان .

العربية القحطانية

أما العربية القحطانية فتعرف باللغة الجنوبية وهي بالقياس الى المضرية أقرب الى الرطانة الاعجمية ، وقد انتشرت في اليمن وحضرموت جنوباً حتى عمان والبحرين شرقاً كالمعينية والسبئية والحميرية وقد أودت قبيل الاسلام أو كادت وخلفتها لهجات متعددة كالزبور في حضرموت وبعض اليمن ، والرشق في عدن ، والحويلة في مهرة والشحر ، والزقزقة بين الاشعريين .

وهناك بضع قبائل كانت منازلها في الجنوب فنزحت منه الى الشمال واختلطت بأبناء معد بن عدنان أي ربيعة ومضر فاصبحت لغاتها مضرية مثل بني عطية وكندة وتنوخ .

بنو قحطان وعدنان

ولقد كان القحطانيون قبل الاسلام أرباب الممالك والتيجان ، وأبناء الحضارة والعمران بخلاف العدنانيين الذين كانت تغلب عليهم البداوة فوق انهم كانوا قبائل متفرقة فلما تبلج فجر الاسلام تبوأ العدنانيون غارب الزعامة وألقت اليهم العرب بالمقاليد فانتقلت السيادة من قحطان الى عدنان .

اللغات السامية

أما اللغات السامية فتنقسم الى ثلاثة فروع هي :

(١) العربية — وصنواها الحميرية والاثيوبية أي الحبشية القديمة .
(٢) الآرامية — وفروعها السريانية والكلدانية والسامرية .
(٣) العبرية — وما ماثلها كالفينيقية والكنعانية .

وهنالك قسم رابع يضم الآشورية والعيلامية .

وأما مزايا اللغات السامية فأشهرها الخصائص السبع التالية وهي:

(١) ان بين حروفها الصحيحة حروفاً حلقية كالحاء والخاء والعين .
(٢) ان كلماتها تتألف غالباً من ثلاثة أحرف .
(٣) ان لأفعالها زمانين وتصاريفها قياسية ومشتقاتها متشابهة .
(٤) فيها المذكر والمؤنث والاعراب الذي هو من خصائص الآشورية والعربية المضرية .
(٥) ليست فيها أفعال أو أسماء مركبة الا الاسماء المزجية .
(٦) انها تكتب من اليمين الى اليسار ماعدا الحبشية فتدون بالعكس ويرجح أن ذلك طارىء عليها لأن نقوشها القديمة تجري على غرار اخواتها .
(٧) ان الحركات تستعمل فيها للدلالة على بعض الأصوات .

سادتي الأماثل :

لقد رأيتم مما ألقيته على مسامعكم الكريمة ان العرب لم يظفروا باية وحدة في دارتهم أو كتابتهم أو أعدافهم أو قوميتهم الا بعد بعثة النبي الاعظم ﷺ فقد جمع كلمة العرب قاطبة في وحدة عميمة شاملة أخرجتهم من الظلمة الى النور ومن الضعف الى القوة فنهضوا تحت رايته المقدسة الوارفة تلك النهضة الصادقة التي تحدث عنها التاريخ وتغنت بها الأجيال « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » .

الصلة التجارية

أيها السادة

ان حديث التجارة لممتع طريف ، فلقد كان العالم وما فتأ قطب رحاه التجارة ، وقديماً كانت الهند ، وكان الشرق الأقصى ، وهما الهدف المنشود لرواد المغانم والمرابح ، ومن المعلوم ان الملاحة في البحر الهندي كانت محفوفة بالمخاطر فوق أنها طويلة الأمد بعيدة الشقة لاعتماد القوم فيها على الريح وفي الاخص قبل الملامهم في تلك الأيام بخصائص الريح الموسمية ، وهذه الريح اثنتان — الاولى تهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي والاخرى تهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ومدة كل واحدة منها ستة أشهر .

ولقد كان العرب يعرفون لدى الشعوب القديمة بأنهم وسطاء التجارة ، وحفظة دروبها ، جرياً على عادتهم في الحل والترحال ، وتمرسهم بالمفاوز ، وارتيادهم مافيها من مرعى ومسارب ومناهل وآبار فوق صبرهم على شظفها ولأوائها ، وكانت بلادهم بحكم موقعها الجغرافي حلقة الاتصال بين ممالك العالم القديم ولقد قال استرابون « ان العربي تاجر بفطرته » .

ولما كان الخلاف قد دب فاستحكمت حلقاته بين الفرس والروم فقد أجمعت فارس على شل التجارة الرومانية مع الهند والشرق الاقصى ولذلك كان تهافتها شديداً على احتلال جنوبي الجزيرة لمنع بضائع الشرق من الوصول إلى أسواق الرومان ، ولقد كان معظم التجارة مع جنوب الجزيرة يمر من الحجاز ومصر على أيدي التجار من أبناء اليمن وبعبارة أوضح السبأيين الذين كانت بيدهم عروض حضرموت وظفار وجميع مايرد من سلعة الى صنعاء من الهند وكانوا يؤمون بها المحطة الكبرى العامة في ذلك العهد العريق وأعني بها « تيماء » .

ومما يحمل على الدهشة أن عرب سبأ استغلوا مناجم الذهب في روديسية

الجنوبية ولا تزال فيها أطلال معابدهم وقلاعهم وآثار زمبابوي من صنعهم ومعنى زمبابوي مصانع الذهب وقد حملوا ذلك الذهب الى سليمان الحكيم في فلسطين من سوفالا أو « سوفالة » ثغر روديسية هذه الى اوفير في اليمن ومع الذهب الحجارة الكريمة والبخور والعصي الحلوة أي قصب السكر وفي الترنسفال أصقاع تسمى الراند تغل من الذهب مايتضاءل دونه نتاج العالم بأسره وهنالك في الراند عرق من الذهب يمتد مسافة لا تقل عن ثمانين ميلاً من الغرب الى الشرق وقد أطلق الناس على هذا العرق اسم (عرق سبأ) اشارة الى (عرب سبأ) وما أحرزوا من ثروة باستخراجهم ذهب تلك الناحية وقد أثبتت الآثار انهم استغلوا الذهب في مناجم تمتد من زمبابوي الى الراند التي قامت فيها مدينة جوها نسبورغ الحديثة .

وأول مانتوه به من المسالك التجارية القديمة في بلاد العرب تلك الطريق التي تبدأ من ظفار على الساحل الجنوبي حيال سوقطرة ، وكانت ظفار مصدر التجارة في البخور ، والى شمالها تقع الصحراء الكبرى المعروفة « بالربع الخالي » والطرق المألوفة تحف بها من طرفيها من الشرق والغرب .

الطريق الغربية

فالطريق الغربية تنحدر مع المجرى الاصلي لوادي حضرموت حتى تلتقي بالسبيل المؤدي الى يوذامرن (عدن) وكانت القوافل الخارجة من صنعاء تسافر شمالاً الى الحجاز مجتازة سلسلة الجبال حتى تبلغ (هدية) فـ (العلا) على تخوم المملكة النبطية ، وكان حراس القوافل والقيمون عليها في الاكثر من أولئك العرب اليمانيين كما رأيتم ، وأما في العلا فقد كان الأنباط يتلقون فيها البضائع ويستوفون المكوس المضروبة عليها ثم يؤذن بها الى « تيماء » وتحملها القوافل من تيماء شمالاً الى بصرى ، وتدمر ، ودمشق ، ومن البضائع ما كان ينقل الى « ايلة » (العقبة) والى « رينوكلورا » (العريش) والى الطرف الشمالي من شبه جزيرة سيناء فيبعث به الى مصر ، ومنها

ما كان يصدر الى حائل ثم الى العراق مجتنباً « النقود » وقد كان أولئك القيمون اليمانيون يقطعون الطريق كلها الى العقبة وذلك في فجر المسيحية . وانما عندما اشتد بأس الأنباط استأثروا بالطرق التي تتخلل بلادهم وكانوا يتولون النقل بأنفسهم من العلا أول مدافعهم أي حدودهم حتى آخر ما لهم من حد ويصيبون من ذلك أموالاً طائلة .

ايلة (أو العقبة)

ولقد كانت ايلة (العقبة) في تلك الآونه سوقاً للقوافل حافلة ، وأما شهرة الأنباط في التجارة فقد ملأت مسامع الدنيا حتى قال عنها ديودوروس الصقلي (ان الأنباط بلغوا الأوج في احتكار تجارة آسيا الغربية وكان لهم الاشراف على جميع المتاجر الاخرى) .

سلع - وقد كانت مدينة سلع حاضرة الانباط بجمع العملاء والصيارفة والسماسرة وأرباب المال ، والمثابة التي تتشعب منها طرق التجارة الى سائر الأرجاء — فتذهب شمالاً الى البلقاء وسوريا وتدمر ، وشرقاً — الى خليج فارس والعراق ، وغرباً — الى البحر الاحمر ومصر ثم الى فلسطين وبلاد فينيقيا ، ولايزال المسافرون حتى اليوم يقعون من تلك الطرق على معالم ظاهرة للعيان على ان الرومان وان لم يبتدعوها فلم يألوا جهداً في تعهدها وصيانتها من البوار .

ولقد كانت كل قافلة تغشى غير طرق الانباط عرضة للنهب والسلب بأيدي الأنباط أنفسهم كما قال ديودوروس واسترابون .

ولما استولى الرومان على ايلة (العقبة) أصبحت منزلاً للجيش العاشر الروماني ، وكانت الرسوم تجبى فيها من قبل عمال الامبراطورية ، وقد شق تراجان طريقاً من أيلة الى فلسطين فاسدى يداً بيضاء الى تجـــارة البحر الابيض .

لوك كوم (املج) أما ميناء لوك كوم (املج) الواقع شمالي ينبع فكان

مرتبطاً بصنعاء ومأرب ، فكانت البضائع تحمل الى ذلك الميناء ثم تشحن منه في البحر الاحمر بعد الوقوف على خصائص الريح الموسمية .

الطريق الشرقية

أما الطريق الشرقية فكانت تبدأ من جرها (القطيف) وكانت البضائع الوافدة من الهند تهبط فيها وتحملها القوافل منها فتسلك بها الطريق المطيفة بخوم عمان مجتنبة اختراق الصحراء الموحشة ثم تلم بظفار آخذة سمتها الى مأرب وصنعاء والى لوك كوم (املج) حتى تتصل بالحجاز مفضية الى مكة .

وظفار مدينة على ساحل جون يخرج من بحر الهند ويطعن في الشمال ، عدة أميال .

ولقد كان بين الهند وساحل حضرموت اتصال مباشر لا يزال قائماً الى اليوم تشق عبابه سفن الاعراب .

بوداموت (عدن)

وكان ميناء يوداموت (عدن) مثابة للعدد الجم من السفن القادمة من الهند ، ثم تسير القوافل من يوداموت هذه تقل البضائع الى مكة ، ويثرب ، وسلع ، وبصرى ، حتى دمشق ، وتدمر ، والعراق ، أما الطرق التي تخترق الشطر الشمالي من البلاد وأعني به مكة — اليمامة — جرها ، فانها أحدث عهداً .

تيماء وعهدها الناضر

أما أقدم الطرق التجارية المعروفة فهي تلك الطريق التي كانت تمتد من جرها (القطيف) الى تيماء مجتازة اليمامة ، وعنيزة ، وحائل .

كانت تيماء في عهدها الناضر منتجع القوافل الشمالية للجزيرة العربية قاطبة ، ويرجع تاريخها الى زمن الفراعنة والآشوريين ، أما الطريق الواقعة بين اليمامة ومكة فالراجح أنها نشأت عن انتعاش الطريق الحجازية ، وكانت مكة في ذلك الزمن السحيق ليست أكثر من مناخ موقت الاستراحة على طريق اليمن — الحجاز .

أما تيماء فكانت المركز التجاري الاعظم للعالم القديم لايشق غبارها في ذلك بلد، ولا يباريها قطر ، فكانت عروة الوصل بين الحجاز وسورية وبين بابل ومصر لانها تتصل ببابل عن طريق حائل ، وبمصر عن طريق معان ، وايلة ، وسيناء ، وبغزة عن طريق ايلة ، وبفلسطين عن طريق تراجان ، وبسورية عن طريق الصحراء الذاهبة رأساً الى بصرى .

ولقد كانت تيماء مطمح أنظار الامم المتنافسة فتداولها النفوذ الفرعوني والآشوري ثم احتلها جيش من بابل (سنة ٥٥٢ قبل الميلاد) ولبث فيها بضع سنين حتى ظهر الفرس على البابليين ، وفي عهد قمبيز استأذن الفرس العرب في اجتياز ارضهم لفتح مصر ولقد قال هيرودوتس (أنه لم يكن في استطاعة الفرس أن يصلوا الى مصر لو أبى العرب عليهم ذلك) .

طرق أخرى

وكان هنالك طرق أخرى تسير من حائل مخترقة الجوف وكاف الى بصرى ، وفي الجوف تلتقي هذه الطريق بفرع آخر يؤدي الى بابل .

أما الدرب المباشر من تيماء الى بصرى فقد استحدثه الرومان البيزنطيون لاجتناب المدن التي كانت تجبى فيها المكوس .

قبل البعثة

وفي الزمن الذي سبق البعثة النبوية المباركة واحتدم فيه القتال بين الفرس والروم (٦٠٤ — ٦٠٧) انحطت ملاحة الرومان . ولم يتقدم الاحباش بتجارتهم نحو الشمال بل كانوا يشحنون قسماً كبيراً منها الى اليمن التي كانت بيدهم ثم انه يحمل منها الى مكة ، وحتى السلع الهندية الشرقية المتحدرة الى خليج فارس كانت ترد الى مكة ثم توزع منها على العالم الروماني اليوناني ، وكان الفرس كعهدهم يجاهدون لعرقلة التجارة الرومية باستيلائهم على اليمن وجرها (القطيف) .

نهضة مكة التجارية

وخلاصة القول ان النزاعات السياسية التي أطاحت بدولة الانباط ، والصراع الدائم بين الفرس والروم ، وعجز الأحباش عن القيام بما يطلبه الروم في أكثر الأحايين ، واضطراب حبل الأمن في معظم أقطار الجزيرة ، قد أدى كله الى نهضة « مكة » فاقتعدت غارب السيادة في (التجارة العالمية) وأصبح الحجازيون يحتكرون مسالكها وانصرفوا الى استثمار الأموال ، وغدت مدينتهم « مكة » مركز العمولة ، والتصريف لتجارة غربي آسيا ، وقامت مكة في ذلك أجمع مقام تيماء ، وتدمر ، وسلع ، ولقد شاركت مكة في تلك العظمة التجارية مدينة يثرب الا أن يثرب كانت تغص باليهود المرابين .

موقع مكة التجاري — وكانت مكة متصلة بنقطة افتراق الطرق الدائرة حول الطرف الشمالي من (الربع الخالي) عن طريق اليمامة الى جرها وأصبحت كذلك ملتقى الطرق الذاهبة الى اليمن وسورية والى تيماء والعراق .

عظمة القوافل — أما شأن القوافل وكان عظيماً وقد رأى استرابون قافلة منها فشبهها بالجيش الاجب لما كان فيها من الحراس ، والادلاء ، والمتجسسين ، والحفظة على الحيوانات ، والخدم ، والوكلاء ، وأضرابهم من ذوي المصالح ، وقد كان من المألوف في زمن الرسول ﷺ أن يبعث بقافلتين من مكة الى سورية في كل عام وكانت القافلة تؤم بعض الاسواق في المدن التي تعينها الحكومة الرومانية البيزنطية حتى لايفوتها استيفاء المكوس .

التجارة الحجازية — كانت التجارة الحجازية تجتاز ايلة (العقبة) الواقعة على حدود الطريق التي أنشأها تراجان من البحر الى فلسطين وكانت تسلكها القوافل الى غزة حتى ساحل البحر الأبيض . وكانت بصرى التي جعلها ديقلوتيان عاصمة الولاية العربية أحفل سوق على التخم السوري ، ولم تكن بصرى هذه عاصمة عربية شبه مستقلة كالحيرة بل كانت تحت اشراف عمال

الامبراطورية ، وكانت القوافل الوافدة من مكة تدفع بسلعها الى أيدي المشترين المفوضين من قبل الدولة ، وأصبح كل شاب ذي مِرّةٍ من أبناء الحجاز يسافر من مكة الى بصرى ولو مرة في كل عام .

الاستبداد المالي بمكة

ولما استفحل أمر التجارة بمكة استبد مموّلوها بفقرائها ونشأ نظام الربا الفاحش الذي ثقلت وطأته على النفوس وبلغ من فداحة أمره أن كان الدائن يضطر المدين الى اكراه إمائه على البغاء للحصول على المال قال الله تعالى : (ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) . وكان اولئك المرابون يرون الربا ضرباً من التجارة ، قال الله تعالى : (وقالوا انما البيع مثل الربا) . وأما تلاعبهم بالتجارة وغشهم وتدليسهم فقد ذكره الله تعالى بقوله : (واذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) . ولذلك كثر الناقون والمملقون واستبد بالأموال الطغاة المسرفون ، فسخروا الأمة لأغراضهم وعبثوا بها وانصرفوا الى الكسب وحده ، لايتورعون عن اقتراف مأثم ، ولا تمسك بحجزاتهم مروءة ، وإذا تلوت كتاب الله وجدته يخاطب تلك الامة المنهمكة بالتجارة بالالفاظ التجارية كقوله : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) .

وقوله : (ألا أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) . وقوله : (واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً) . الى غيرها من أمثالها في التنزيل الحكيم .

قريش

أما قريش فكانت في تلك الحلبة التجارية هي المجلية فقد قبضت على مخنق العرب واحتجنت الأموال ، واستأثرت بالمتاجر أو كادت ، وان لاسمها رنيناً في أذني يوسوس الي بانه تصغير تعظيم للقرش وهو دابة عظيمة تكون في البحر المالح تخافها دواب البحر كلها لقوتها وبطشها ولاتزال معروفة حتى

اليوم بين العرب وفي الحجاز خاصة باسمها القديم أي القرش ويوجس منها الناس الخوف الشديد ويقال لها قريش كذلك بصيغة المصغر .

قال الشاعر :

وقريش هي التي تسكن البحـــ ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تتـــ ـرك فيه لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد شأن قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا

أجل أيها السادة : لقد ذكر المؤرخون ان قريشاً كانت في أول أمرها قبيلة متفرقة في البراري حتى جاء قصي بن كلاب من الشام فجمعهم وكانت تدعى قبل ذلك النضر بن كنانة وسماها قريشاً من التقريش أي التجميع وقيل غير ذلك وان هنالك نظرة أخرى في أصلها فقد جاء في « لسان العرب » وغيره (ان منشأها من بابل قال محمد بن سيرين : سمعت عبيدة يقول سمعت علياً عليه السلام يقول : من كان سائلاً عن نسبتنا فانا نبط من كوثى) وروي عن ابن الاعرابي انه قال : سأل رجل علياً عليه السلام فقال : أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش فقال : (نحن قوم من كوثى) واختلف الناس في قوله نحن قوم من كوثى فقالت طائفة أراد كوثى العراق — وهي سرة السواد التي ولد بها ابراهيم عليه السلام وقال آخرون أراد بقوله كوثى مكة وذلك أن محلة عبد الدار يقال لها كوثى ، فاراد علي عليه السلام أنا مكيون أميون من ام القرى .

قال حسان :

لعن الله منزلاً بطن كوثى ورماه بالقفر والاعصـــار
ليس كوثى العراق أعني ولكن كوثة الدار دار عبد الدار

قال أبو منصور : والقول هو الاول تقول علي عليه السلام « فانا نبط من كوثى » ولو أراد كوثى مكة لما قال نبط ، وكوثى العراق هي سرة السواد من محال النبط وانما أراد علي عليه السلام أن أبانا ابراهيم كان من نبط كوثى وان نسبنا انتهى اليه قال ابن عباس نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى .

يثرب وفنحاص — أما يثرب فكانت كثيره كذلك الى المكاسب في حرص ونهم وانه ليحسن بي أن أقص عليكم خبر فنحاص أحد أحبار اليهود فان فيه مايمثل رأي القوم في التهالك على الحطام ، واستساغة السحت فقد قال فنحاص لابي بكر رضي الله عنه « والله يا أبا بكر مابنا الى الله من فقر ، وانه الينا لفقير ، ومانتضرع اليه كما يتضرع الينا ، وانا عنه لاغنياء وماهو عنا بغني ، ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا » . فغضب أبوبكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال : « والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بينا وبينك لضربت عنقك أي عدو الله » .

وقال الله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا) .

ذلك ما كان عليه العرب في الجاهلية من مرهق البغي الذي استأصل من قلوبهم شأفة الرحمة والشفقة وقطع بينهم دابر التعاون على البر والاحسان ، ولذلك استشرف العالم أجمع متشوقاً الى المصلح الاعظم ﷺ وازف أوانه ، وحان إبّانه ، لينقذ الانسانية من المدوان ، ويضع عنها عبء الطغيان .

واني لأختم مقالي هذا ببيان ألوان التجارة التي تداولتها أيدي العرب في البلاد العربية لانفسهم ولغيرهم من الامم ليكون في ذلك بعض الحجة على صلات العرب بغيرهم من الشعوب الاخرى ، وسعيهم وراء الربح وعلى انغماسهم في الترف وتكاثرهم بكل حلي وزينة ولقد قال الله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) . وأما أنواع تلك المتاجر فهي من الهند الدر والياقوت والمسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفـــل ، ومن الصين الحرير والقصب ، ومن اليمن نفسها الذهب من معدن عثم ، والجزع والعقيق من مخاليف اليمن الشرقية ، ومن الشحر الفارجيل والتنبل ، ومن الأنحاء الاخرى العبيد والبهار والانسجة الفـاخرة والوشي والنمارق والعاج والعسل والصوف والمن والادم والبرود والفحم والحنطة والحجارة الكريمة .

وقال حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين عن العرب أنهم يتاجرون بالخرفان والكباش والاعتدة وأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب .

وصفوة القول ان العرب كانوا يتجرون مع سورية بالأرجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت ، ومع فلسطين بالحنطة والحلاوة والعسل والزيت والبلسان ومع دمشق بالصوف الأبيض والخمر .

أما تجارة البدو الرائجة عند ذوي اليسار منهم فكانت فيما تفتقر معايشهم اليه فالوبر للبجاد ، والصوف للخباء ، والشعر للفسطاط ، والقطن للسرادق ، والأديم للانراف .

قال طرفة :

رأيت بني غبراء لاينكروني ولا أهل ذياك الطراف الممدّد